

مصادر تاريخ السلطنات الإسلامية في السودان الشرقي

١٤٥٠م - ١٨٢٠م

د. يوسف فضل حسن

شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين تغييرات سياسية واجتماعية كبرى في المنطقة الواقعة جنوب مصر والتي تشمل مملكتي النوبة وعلوة المسيحيين . ففي القرن الخامس عشر انتهت موجة الهجرات العربية التي تدفقت من الجزيرة العربية ومصر عبر الصحراء الشرقية ومحاذاة شواطئ النيل ، وامتد أثرها حتى عم كردفان ودارفور وما وراءها . وقد أدى تسرب هذه المجموعات الكبيرة من القبائل العربية الى غلبة الثقافة العربية وانتشار الاسلام .

وقد كانت الحملات العسكرية التي بعثها سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م) من أهم العوامل التي أضعفت السلاج السياسي لمملكة النوبة المسيحية ومن ثم مهدت الطريق لعلبة المهاجرين العرب الذين استطاع روادهم من بني الكنز ، وهم فرع من ربيعة اختلطت بالنوبيين وصاهرت الأسرة الحاكمة ، اعتلاء عرش النوبة في سنة ١٤٢٣م . وقد تحقق ذلك بفضل نظام الوراثة عن طريق الأم وبتأييد المجموعات النوبية المستعربة والقبائل العربية التي صاحبت الجيوش المملوكية ، فانتقلت السلطة في الأسرة الحاكمة من فرع نوبي مسيحي الى فرع نوبي مستعرب مسلم . وبانتهاء النفوذ السياسي لمملكة النوبة المسيحية انهار العاجز المنيع الذي

كان يحول دون توغل العرب في حوض وادي النيل الأوسط ومن ثم تدفقت القبائل العربية في مجموعات كبيرة سعياً وراء سهول المراعي .

وفي ظروف لا تعرف عن تفاصيلها الكثير تمكن العرب من القضاء على مملكة علوة المسيحية في أواسط القرن الخامس عشر وقد بذرت نواة التكوينات القبلية العربية وأرست دعائم العقيدة الإسلامية في الفترة التي تلت سقوط مملكة النوبة المسيحية (١٣١٧ م) وقيام سلطنة الفونج الإسلامية وامتداد نفوذها (في حلف مع العبدلاب) حتى شمل معظم وادي النيل الأوسط . وإلى جانب أهمية هذه الفترة في تاريخ السودان الحديث فإنها تعتبر من أكثر العقب التاريخية غموضاً في تاريخ هذه البلاد .

ولكن ما أن وضعت غلبة الإسلام وشيوع الثقافة العربية وانتشار القبائل العربية واختلاطها بالوطنيين وتمثلهم لأنساب القبائل العربية في أجزاء كبيرة من الجزء الشرقي من بلاد السودان ، حتى ظهرت سلسلة من السلطنات الإسلامية في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السابع عشر ، وأهمها ممالك العبدلاب والفونج وتقلي المسيمات والفور .

وكانت أولى هذه الممالك ظهوراً هي مملكة العبدلاب التي ورثت مملكتي علوة والمقرة : مهد الحضارات السودانية المعاصرة لعهد الأسرات في مصر ، ومركز الثقل السياسي الحضاري في العهد المسيحي . وقد تعرضت هذه المنطقة إلى قدر كبير من المؤثرات العربية حتى غلبت عليها سمات الثقافة العربية كما ازدهرت فيها المؤسسات الدينية والعلمية حتى صارت مصدر إشعاع إسلامي وحضاري لباقي أقاليم السودان . فلما تهيأ لأقاليم العبدلاب الزعامة الدينية والثقافية بدأت هجرة العلماء والمتصوفة إلى المناطق حديثة العهد بالإسلام حاملين لواء الإسلام والثقافة العربية .

وعند نهاية القرن الخامس عشر ظهرت قوة سياسية جديدة بزعامة الفونج استطاعت أن تهزم العبدلاب في سنة ١٥٠٤م وتمكنت من بسط نفوذها على معظم وادي النيل الأوسط . وظل العبدلاب يمثلون الشريك الأصغر في إطار سلطنة الفونج الإسلامية حتى سقوطها في سنة ١٨٢١م . وقد اكتنف نشأة هذه الدولة كثير من الغموض ومازال أصل الفونج يمثل واحدة من كبريات المشكلات التاريخية التي تواجه السودانيون . ويرجعهم معظم الباحثين إلى أحد هذه الأقاليم : بلاد الحبشة أو بلاد البرنو أو دار الشلك على النيل الأبيض . وتفضل الروايات السودانية بلاد الحبشة بينما يرجع النسابون السودانيون الفونج إلى أصل أموي . ونلاحظ أن كلا من بلاد

العشبة والبرنو قد وقعت تحت مؤثرات اسلامية قبل قيام سلطنة الفونج
الاسلامية .

وعلى الأطراف الغربية من بلاد السودان الشرقية نشأت في اواسط
القرن السابع عشر سلطنة الفور الاسلامية ، وهي تمثل واحدة من سلسلة
السلطنات الاسلامية التي انتشرت في اواسط بلاد السودان . وعند جبل
مرة ، موطن الأسرة الحاكمة ، يلتقي عدد من الطرق التجارية . وكانت هذه
الطرق مصدر هجرات قبلية ومؤثرات ثقافية أثرت في الكيان السياسي لذلك
الموضع الناتئ . وقبل قيام سلطنة الفور شهد ذلك الاقليم تسلط التجنور
والداجو وهجرة القبائل العربية وانتشار بعض مظاهر الثقافة الاسلامية .
وتضطرب الروايات عن أصل الأسرة الحاكمة وتصل بعض الأخبار الى ربطهم
ببعض العناصر العربية المسلمة الوافدة من وادي النيل . . ويرجح أن
الميلاد الحقيقي لهذه الدولة المسلمة قد اقترن بسليمان سولونج (أي الأحمر
أو العربي) ، وظل أحفاده يحكمون دارفور حتى ٢٤ أكتوبر ١٨٧٤ عندما
هزمها الزبير باشا رحمة . ولكنها ما فتئت تعاود الظهور مرة تلو الأخرى ،
حتى ضمت الى السودان الانجليزي المصري في عام ١٩١٦ .

وفي دارفور كما كان الحال في مملكة الفونج وتقل وغيرها من الممالك
الصفرى كانت تتواتر ظاهرة قدوم رجل غريب حكيم من منطقة متحصنة
ويكون غالبا (فردا أو جماعة) عربيا أو مسلما يتزوج من الأسرة المحلية
الحاكمة ثم ينجح في أن يرث أبناؤه الملك . ويكون ذلك كله منطلقا لقيام
دولة اسلامية ذات صلات تجارية واسعة .

وشهد اقليم كردفان الواقع بين سلطنتي الفور والفونج نشأة
« دولتين » صغيرتين هما تقل والمسيحات ففي منطقة جبال النوبة نجح الفقيه
محمد الجملي ، الوافد من ديار الجعليين ، في جذب قلوب المواطنين بورهه
وحسن سلوكه لدرايته ببعض المهارات ، كما تزوج بنت ملك تقل
ومن ثم ورث أبناؤه العرش وذلك في عام ١٥٧٠ م .

أما المسيحات ، أبناء عمومة سلاطين الفور ، فلم يرثوا تنظيميا سياسيا
ذا كيان محدد بل سموا منذ أواخر القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن
عشر لتحقيق مطامع أميوية لانشاء دولة مستقلة . وقد قارب المسيحات
النجاح في عهد السلطان هاشم المسيحاوي ، ولكن مطامع الفور لم تترك لهم
فرصة للانفراد بالسلطة في ذلك الاقليم الاستراتيجي .

استعرضنا خلال هذه المقدمة بعض السمات الرئيسية لتاريخ الممالك الإسلامية في بلاد السودان الشرقية ، وقد ظهر فيها جليا دور الاسلام والثقافة العربية في نشأة هذه الممالك . كما أن اعتناق الأغلبية العظمى من شعوب هذه الممالك للمعتقدات الإسلامية وتمثلهم للثقافة العربية أدى الى خلق نوع من التماسك والترابط بين شعوبها ، كما أسهم في وضع اللبنة الأولى لوحدة وطنية وسياسية أكثر شمولاً .

ومع وجود هذه المقومات الأساسية فإن الصلة بين هذه السلطنات كانت ضئيلة ، ولعل سبب ذلك سعة رقعة هذا الاقليم وصعوبة المواصلات في داخل البلاد وإلى الخارج . مما جعل هذا الاقليم يعيش في عزلة ثقافية كبرى . وحقيقة الأمر أن هذه الدويلات ظلت حبيسة محليتها ولم تتأثر كثيرا بأي مؤثرات خارجية بعد غلبة الثقافة العربية الإسلامية ، إلا بعد الفتح التركي المصري في عام ١٨٢١م . وبهذا الفوز ، في رأيي ، تؤرخ بداية العصر الحديث في السودان وادي النيل ، ولقد أدت هذه العزلة الثقافية مضافا إليها نفسية الأمة وتغلغل البلاد النسبي الى ضالة الانتاج الفكري المحلي وضعالته عموما . وقد أثر هذا كله على درجة « الوعى التاريخي » ومن ثم قلت المؤلفات التاريخية السودانية وغير السودانية .

وازاء هذا الشح في المصادر التاريخية فليس غريبا أن تظل كثير من التساؤلات دون اجابة . وسأحاول في هذه الدراسة تغطي النظرة التقليدية التي تهتم بدراسة المصادر الأولية والتي تنحصر عادة في محيط الوثائق الدبلوماسية الرسمية وما شابهها . فإن قللة أو ندرة ما سطر عن هذه الممالك تجعلنا نهتم بكل ما كتب ثم نخضعه لدراسة علمية دقيقة بل لا بد أن يلجأ الباحث لقلب الأمة أو مكنوزها من التراث يستشف منه بعض المعلومات التاريخية التي يتوارثها الناس على هيئة قصص أو أشعار أو روايات شفوية . وستشمل هذه الدراسة نماذج من المخطوطات ، ووثائق تطبيق الأرض ، كتب التاريخ المعاصر وأدب الرحلات وأشجار النسب والروايات الشفوية .

وساقسم ملاحظاتي الى أربعة أقسام : أولا الهجرة العربية وأثرها على السودان الشرقي ، ثانيا ممالك المبدلاب والفونج وتقل ، ثالثا سلطنتنا الفور والمسببات ، رابعا أهمية الروايات الشفوية .

وبما أن كثيرا من هذه المصادر تتعرض لأكثر من مملكة في وقت واحد فستكون دراستي متداخلة وربما اكتفيت بالإشارة لها في موضع واحد . واعتذر عما يحدث هذا من خلل في التقسيم الجغرافي والتسلسل التاريخي .

الباب الأول

الهجرة العربية وأثرها

هنالك مجموعتان من المؤلفات التي تناولت موضوع الهجرة العربية إلى السودان وأثرها . الأولى هي المصادر العربية المعاصرة والأخرى هي أوراق النسب المنتشرة عند كثير من السودانيين . والمصادر العربية تعكس العلاقات بين بلاد النوبة وما وراءها والامبراطورية الإسلامية في الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والخامس عشر . ومع أن ما كتب في أواخر هذه الفترة يمس بلاد النوبة عرضياً ، إلا أن جملة ما كتب من أخبار وسير يكون خلفية تاريخية لا غنى عنها لأي باحث في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي .

المصادر العربية المعاصرة :

ومع هذه الأهمية القصوى للمصادر العربية فإن ما ورد فيها مقتضب في جملته . بل لا أبالغ إذا قلت أنه لم يفرّد واحد من المؤلفين العرب كتاباً متكاملًا عن ذلك الاقليم الشاسع سوى المقتطفات التي وردت في كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار للمقريزي (١) من كتاب أخبار النوبة . والمقرة وعلوة والبيجة والنيل الذي ألفه عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني (٩٩٦) الداعية الفاطمي الذي زار بلاد النوبة وعلوة وسجل فيه ما شاهده أو سمعه . ولكن الكتاب مفقود ولم يبق منه إلا ما أورده المقريزي (١) .

وتضم المصادر التي عالجت موضوع الهجرة العربية ما يزيد عن الستين مصنفاً مطبوعاً ومخطوطاً . وقد جمع الاستاذ الدكتور مصطفى محمد سمعد مقتطفات من نحو أربعين كتاباً أسماها المكتبة السودانية العربية (٣) . وقد فرغ الأب الدكتور جيوفاني فانتيني من دراسة مماثلة جمع فيها كل ما كتبه العرب عن السودان الشرقي في العهد المسيحي قبل نهاية القرن الخامس عشر . وتحتوي هذه الدراسة هوامش مستفيضة وترجمة للغة الانجليزية (٤) . وقد أهد كاتب هذا المقال دراسة تحليلية عن أهم هذه الكتب عند دراسته لدخول العرب في السودان (٥) .

ويكفي أن نذكر طرفاً من هذه المصادر وأهمها كتب التاريخ مثل فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (٨٧١) وفتوح البلدان لأحمد بن يحيى

البلاذري (ت ٨٩٢) . وتاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري (ت ٩٢٢) وتاريخ ابن واضح لليعقوبي (ت ٨٩٧) وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (ت ١٤٠٥) وكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (ت ١٤٤٢) . والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المعاسن بن تفرج بردي (ت ١٤٦٩) . ومن المصادر الهامة كتب التراجم مثل تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع (عاش في القرن العاشر) . ومن كتب السيرة تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور والروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر لابن عبد الظاهر (ت ١٢٩٢) ومن دوائر المعارف نهاية الأرب في فنون الأدب للتويري (ت ١٣٣٢) . مسالك الأبحار في مسالك الأبحار لابن فضل الله العمري (ت ١٣٤٨) . وصبح الأعيان في صناعة الانشاء للقلقشندي (ت ١٤١٨) . كما يمثل أدب الرحلات مصدرا هاما لدراسة تاريخ هذا الاقليم . ولعل أهم هذه الكتب كتاب ابن مسليم الأسواني الذي نوهنا به من قبل ، وهو مزيج من التاريخ والجغرافيا . وسفر ثامة للرحالة الفارسي تاعري خسرو (ت ١٠٨٨) ورحلة ابن جبير (ت ١٢١٧) للرحالة الأندلسي الذي زار ميناء عيذاب . كما أفرد ابن بطوطة (ت ١٣٧٧) جزءا من رحلته تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لميناء سواكن والمنطقة الساحلية . ومن كتب الجغرافيين الذين أفردوا جزءا للسودان الشرقي كتاب الإدريسي (ت ١١٦٥) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس وكتاب ابن حوقل (ت ٩٥٦) صورة الأرض . والمسمودي (ت ٩٥٦) مروج الذهب ومعادن الجوهر . ومن الدراسات الفريدة التي تبحث في أصول الرقيق ومميزات كل فئة واستعدادها رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد لابن بطلان (ت ١٠٦٣) . ومن الدراسات الهامة التي تلقي ضوءا على تاريخ القبائل العربية قبل الهجرة الى السودان ومواطن اقامتها والتي تساعد في مراجعة ما ورد على لسان النسابين السودانيين عن أصولهم العربية كتاب « البيهقان والاعراب عما في أرض مصر من الأعراب » للمقريزي . ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب . للقلقشندي .

ومع وجود بعض المصادر السودانية الخاصة بالمخططات الأثرية فإن دراسة تاريخ العهد المسيحي وبداية توغل النفوذ الاسلامي تعتمد اعتمادا أساسيا على المصادر العربية التي استعرضنا جانبها منها . ولكن مما يؤسف له أن اهتمام الكتاب المسلمين بالسودان الشرقي قد انتهى بانقطاع الملائق السياسية التي كانت تربط مصر ببلاد النوبة . وبدأت فترة جديدة امتدت حتى أواسط القرن التاسع عشر لم يفرد فيها مصنف واحد عن هذا الاقليم التاسع الا عندما صدر كتاب « تشعيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » لمحمد بن عمر التونسي (ت ١٨٥٧) . وازاء هذا الضمور في المصادر العربية

فان المصادر الوطنية صارت تمثل المرتكز الأساسي لدراسة تاريخ هذا الاقليم ، مضافا اليها ما خلفه الرحالة الاوربيون الذين أخذوا مكان وصفانهم العرب والمسلمين ، وقد ازداد عددهم منذ أوائل القرن السادس عشر (٦) .

أشجار النسب :

هذه مجموعة من كتيبات النسب وهي في الأغلب عبارة عن قوائم تؤرخ لنسب أسرة أو قبيلة أبا عن جد حتى تبلغ النبي صلى الله عليه وسلم أو عمه العباس أو بعض أجلة الصحابة ، وقد تمتد كما هو الحال عند سائر العرب الى قحطان أو عدنان . ويهتم السودانيون ، خاصة العرب منهم ، أو من تمثلوا الثقافة العربية تمثلا كاملا ، بهذه الأنساب إذ أنها تقرر ، كما يعتقد البعض منهم ، صراحة نسبهم . أو قل أنها تمنحهم الاطمئنان على عراقة أصولهم خشية أن يعدوا في زمرة من اختلطوا بهم في الموطن الجديد . وهو سلوك يدل على الشعور بالتمييز عند هؤلاء العرب . ومن تمثلوا ثقافتهم ، دون غيرهم . ومن ثم تمكس أشجار النسب في الموطن الجديد تمييزا ثقافيا وليس عرقيا كما يظن من ارتضوها لأنفسهم . فأشجار النسب تهتم بذكر الأباء دون الأمهات وفيها يهمل دور المجموعات الوطنية في التسلاخ . ويكلمات أخرى فأشجار النسب ترمز الى تميز ثقافي وليس عرقيا ، وربما كان التمسك بها تعبيرا لغلبة الثقافة العربية التي انتظمت السودان الشرقي في أواخر القرن السادس عشر .

وأشجار النسب لا تغلو من أن تكون سجلا جافا لأباء أسرة معينة تتوارثه خلفا من سلف ، وبعضها يحوي بعض القرائن التي ترجعها الى القرن السادس عشر . ولكن الراجح أن معظم ما وصلنا من مخطوطات يرجع الى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وتختلف هذه الكتيبات طولا وقصرا وتشمل أحيانا بعض الروايات التي يأتي ذكرها عرضا ، كما تشمل بعض الأخبار من قرش وغيرها من القبائل العربية ولكن ما فيها من أخبار يفتقد الدقة . ويزعم معظم أصحاب هذه الكتيبات أنهم قد نقلوها عن كتاب الأنساب للإمام السمرقندي ، وهو شخصية شبه أسطورية ربما عاشت عند نشأة سلطنة الفونج . ولا شك أن معرفته بالأنساب العربية عامة وصلات القبائل العربية والمجموعات المستعربة بعضها ببعض مكنت هذا المؤلف أن يصير حجة يتكئ عليها القاضي والداني في سائر البلاد .

وقد جمع السير هارولد ماكسويل ، السكرتير الإداري لحكومة السودان قدرا كبيرا من أوراق النسب هذه خلال العقدين الأولين من هذا القرن وقام بدراستهما واعداد ترجمة موجزة لها في كتابه :

The Tribes of Northern and Central Kordofan, Cambridge (ا)
1912;

A History of the Arabs in the Sudan, Cambridge, 1922. (ب)

وهو مكون من جزئين - ويمد الكتاب الثاني حجة في تاريخ القبائل العربية في السودان . وقام كاتب هذه السطور بدراسة « الوثائق » التي جمعها ماكبايل بعد أن قارنها ببعض المؤلفات العربية المماثلة ونشرها في كتابه ومن شام الاستزادة The Arabs and the Sudan, Khartoum, 1974 .
في هذا الموضوع فليرجع الى تلك المؤلفات . وكذلك المقال الذي كتبه عن مصادر تاريخ السودان في فترة ما قبل المهدية . في كتابه « دراسات في تاريخ السودان » ، الجزء الأول ، الخرطوم ، ١٩٧٥ ، ١٠٩ - ١٤٥ . ومع أنه يصعب أن تصدر حكما عاما على القيمة التاريخية لسائر اوراق النسب الا أنه يمكننا الاستفادة منها لأخذ بيانات تاريخية حتى ولو كانت بعض مزاعمها الظاهرة لا أساس لها . وفي الوقت نفسه يجب أن نأخذ هذه البيانات التاريخية في شيء من العذر وأن نضعها لدراسة نقدية وتحليلية . وحقيقة الأمر أن الأخبار التي ترد في كتب النسابين السودانيين تلقي ضوءا على بعض مظاهر استكمال الاستعراب وتوضح طبيعة العلاقات التي تربط بين الوافدين والوطنيين . ولهذا تعتبر مصدرا هاما لتاريخ السودان القبلي وكيانه الوجداني والنفسي .

ومن العريف أن نهج الامام السمرقندي في التأليف مازال مثلا يحتذى عند كثير من الكتاب الذين يؤرخون لسائر القبائل العربية في السودان أو بعضها منها . ومع أن كثيرا مما ورد في هذه المؤلفات فيه تكرار لما جاء في كتب النسابين السابقين ، الا أنها تشمل بعض التفاصيل أو الإضافات التي نشأت من اتساع رقعة الأرض التي تحتلها القبيلة أو ازدياد عدد من انضوى تحت لوائها . معتمدين في ذلك كله على الأخبار الشفوية التي ينقلونها خلفا من سلف . مثال ذلك كتاب « تاج الزمان في تاريخ عرب السودان » وهو موسوعة كبيرة أعدها الشريف يوسف الهندي ، والكتاب مازال مخطوطا . وكتاب سبهم المروبة ، حول التاريخ وقبائل العرب بالسودان الخرطوم ، ١٩٤٩ ، الجزء الأول ، للشيوخ عثمان حمد الله . وله مخطوطة أكثر تفصيلا في نفس الموضوع . وكتب الشيخ عبد الوهاب الهاشمي دراسة تفصيلية عن تاريخ قبيلة المرواب مبينا صلتها بالجمليين . وموضعا لمروعها الصغيرة . ونشر الكتاب بالخرطوم حديثا . وللشيخ الفضل الفكي الطاهر ، دراسة أكثر تفصيلا عن « تاريخ وأصول العرب بالسودان » ، الخرطوم ، ١٩٧١ . وفي هذا الكتاب يبرر المؤلف أنساب القبائل العربية

بالسودان وأصولها . وربما تكمن أهمية الكتاب في أنه يحتوي على بعض الأخبار القيمة عن تاريخ تلك القبائل كان المؤلف قد استقفاها من بعض الوثائق التي ضاعت أصولها . خاصة ما كان يحفظ في بلاط ملوك الجعليين بشندى . ويتفق المؤلف ، وهو لا يقرأ الفرنسية ، مع بعض ما أورده الكاتب الفرنسي دى كادلافين عن ملوك الجعليين في بارا عندما تعرض لهذا الموضوع في نحو عام ١٨٣٦ .

ولقد ابتدأت شعبة أبحاث السودان في ١٩٦٥ (والتي يضم نشاطها حاليا معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية) بجامعة الخرطوم برنامجا علميا لرصد الروايات الشفوية من التاريخ والقصص والشعر والأنساب التي مازالت متوارثة عند الأفراد والمجموعات ، بقصد اعدادها للنشر حفاظا لها من الضياع . وقد نشرت هذه الذخيرة من الروايات في سلسلة « التراث الشعبي » ، وصدر منها عن الرباطاب والفادنية والحرر والحرمان ، والمسببات والشايقية والمناصر والعبدلاب .

الباب الثاني

مصادر تاريخ ممالك العبدلاب والفونج وتقلي

بما أن تاريخ مملكتي العبدلاب والفونج متداخل فسأقرن ملاحظاتي منهما . وهذا الاجراء سيشمل أيضا مملكة تقلي وذلك لقربها من وادي النيل وكثرة صلاتها السياسية والتجارية به .

المصادر الوطنية :

يمكن تقسيم المصادر الوطنية الخطية غير أوراق النسبة الى نوعين هما الكتب ووثائق عقود تملك الأرض . ونلاحظ أن معظم ما كتب عن هذه الممالك قد تم انجازه في أواخر عهد الفونج وخلال القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين .

الكتب :

ولعل أقدم هذه المخطوطات هو « تاريخ الملوك الفونج ببلد سنار » وهي وثيقة صغيرة مكونة من ست صفحات أحضرها الرحالة الاسكتلندي

جيمز بروس من سنار في سنة ١٧٧٢ . وتحفظ حالياً بمكتبة بودليان
باكسفورد . وتحتوي الصفحة الأولى منها غير البسيطة على عبارة « تاريخ
ملوك الدولة الفتنية بمدينة سنار المحروسة المحمية بعد المملكة النوبية »
أول من نزل لسنار السلطان عمارة بن عدلان عام تسع مائة وعشر سنين من
هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تعطى نبذة مقتضبة عن تسلسل
ملوك الفونج . وربما كان أحمد سيد القوم ، رئيس شئون القصر في سنار
في ذلك العهد ، هو مؤلف هذه الوريقات .

واعتبر « مخطوطة كاتب الشونة » أو « تاريخ ملوك سنار » امتداداً
وتطويراً لوريقات بروس . وقد وصلتنا نسخ عديدة من هذا المخطوط الهام
تختلف اختلافاً واضحاً في حجمها وفي ما تؤرخ له وفي أسلوبها . والسبب في
ذلك أن الكتاب قد لمسه أكثر من قلم بالتأليف والتذهيب والاضافة . والراجع
أن النواة الأولى لهذا الكتاب القيم من وضع الشيخ أحمد بن الحاج أبو علي
كاتب الشونة (١٧٨٥ - بعد عام ١٨٣٨) وهو سوداني . وكان يمسك
موظفاً بالإدارة التركية المصرية في الخرطوم . ويمالج الكتاب موضوعين
رئيسيين : تاريخ سلطنة الفونج ثم العهد التركي المصري حتى عام ١٨٣٨ .
وجاء في مقدمة الكتاب « فإني رأيت تواريخ للأقدمين في عهد سني الملوك
السابقين وأحببت أن أجمع إلى ذلك شيئاً من ابتداء عمارة سنار المحروسة ..
وأذكر ما كان فيها ومن ملوكها وعلى ما سمعته الآذن وشعده في آخر ملكهم
الأمين » . ويعتبر هذا الكتاب مصدراً هاماً لتاريخ مملكتي العبدلاب والفونج
(وتلقي إلى حد ما) . إذ يضم قوائم ملوكهم بالاضافة إلى قدر يسير من
التطبيقات . ويمتاز الجزء الأخير منه بمفصيل ما اجتاحت دولة الفونج من
اضطرابات حادة في آخر عهدها .

وقد تمهد هذا الكتاب ثلاثة من العلماء . الذين عاشوا في كنف الحكم
التركي المصري بالسودان بالتذهيب والتنقيح والاضافة . ولكن جوهر اضافتهم
لم يمس الفترة التي نحن بمسدها . وقد اهتم الشيخ الزبير بن عبد القادر
ود الزين بتذهيب أسلوب المؤلف كما أضاف إليه مادة جديدة تشمل الفترة
المنتهية في عام ١٨٦٣ . وأسهم الشيخ إبراهيم بن عبد الدافع بشيء من
العطف والاضافة واستندت مادة الكتاب حتى عام ١٨٧١ على يد الشيخ الأمين
الضريير .

وللكتاب طبعتان محققتان أولاهما للبروفسير مكي شببكة وقد نشرت
بم عنوان « تاريخ ملوك سنار » الخرطوم ، ١٩٤٧ . والثانية للأستاذ الشاهر
بصيلي عبد الجليل بم عنوان « مخطوطة كاتب الشونة » أو تاريخ السلطنة

السناوية ، والادارة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ . ويعمل الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم وكاتب هذه السطور على نشر تحقيق جديد يشمل السبع الخطية التي اكتشفت حديثا .

اما كتاب « الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان » ، لمحمد بن النور صيف الله (١٧٢٨ - ١٨٠٩) ، المشهور بـ (أي ولد) صيف الله ، فيمثل صرحا هاما في تاريخ الممالك الثلاث . فقد شأ المؤلف بعلماية الملوك مقر ملوك العبدلاب - وهناك درس المعلوم الدينية وتأثر بالجو الصوفي الغالب على السواد في ذلك الحين . ويذكر ود صيف الله أنه ألف هذا الكتاب استجابة لرجاء من أصدقائه . بأن أودح لهم ملك السودان . وأذكر مناقب أوليائها الأعيان . فأجبت سؤلهم . . . مع أنه لم يكن لأسلافه وأسلافهم وضع في هذا الشأن الا أن أحبارهم متواترة صد الحاص والعام . منها ما بلغ حد التواتر عسدهم فأجبت أن أذكر ما تواتر واشتهر . . والكتاب يشمل ترجمات دائية لسير سمين وماتتين من العلماء والأولياء ويحتوي على معلومات من الحياة السياسية والاجتماعية والدينية . ويعم بين دفتيه العديد من الحكايات الشعبية ويهرح بمادة لغوية لا عسى منها لأي باحث في النعمة العامة السودانية كما يشمل نماذج من شعر المديح والثناء . وقد جمع المؤلف كل هذه دون نقد أو تعليق ولكنه اختار منها ما اشتهر وتواتر في ذلك العهد . واعتمد المؤلف في جميع هذه المادة على ثلاثة رواد أولها ما تواتر من الأحبار أي الروايات الشفوية المتداولة بين الناس أو خلاصة الموروث الشعبي الذي يمثل ذاكرة الأمة وتناقلت الأجيال كابرا عن كابر . وثانيها ما ورد في بعض المصادر الخطية التي ضاع أصلها مثل الاحبار والناوي والأحكام الشرعية وما نقله من بعض المؤلفات . وثالثها ما رواه كشاهد عيان . وقد كتب الكاتب بلغة مسطلة يرح فيها المؤلف بين المعصبي والعامة السودانية .

وقد وصلنا هذا الكتاب في صورة يصح معلومات ليس بينها خلاف جوهرى . وقد نشرت ثلاث مرات خلال هذا القرن آخرها ورهبسا القرها لهيئة الكتاب الاولى الطبعة التي شرعتها جامعة الخرطوم . في عام ١٩٧١ (٧) .

قبل بصع سنوات عشرت على مخطوطين متشابهتين من تاريخ العبدلاب من تأليف عبد الله بن الارساب بن شارو سليل ملوك العبدلاب . وترجع أقدم المخطوطين الى سنة ١٩١٥ وعنوانها « مقدسة تاريخ ملوك العبدلاب المقيمين بمدينة قرى المعروسة ونواحيها » . وتتكون هذه المخطوطة من خمس وثلاثين صفحة . وذكر المؤلف أنه كتبها بناء على توجيه من لا يسمعه مخالفتة . ولعله

السيد علي المرغني واعتمد في تأليفها على كلمات سُمعها من الكبار المتقدمين . أما المخطوطة الثانية ، واضح البيان في ملوك العرب بالسودان ، فلا يعرف تاريخ تأليفها . وتتكون من احدى وعشرين صفحة . وذكر المؤلف أنه استفاد كثيرا من روايات والده البالغ من العمر تسعين سنة . وكان والده هذا على صلة وثيقة بالعالم ابراهيم بن الشيخ عبد الدافع أحد منقحي مخطوطة كاتب الثونة . والمخطوطة الأخيرة تكاد تكون صورة طبق الأصل للروايات التي نشرها المستر بن بالانجليزية في سنة ١٩٢٤ . وهاتان المخطوطتان لم تحققا بعد تعقيبا علميا (٨) . وتشمل المخطوطتان على سجل كامل لملوك المبدلاب ومنجزاتهم وصلاتهم بملوك الفونج . ورغم أن هاتين المخطوطتين تعتمدان اعتمادا كلياً على الروايات الشفوية المتواترة عند أبناء تلك القبيلة في أول هذا القرن . فإن ما جمعتها شعبة أبحاث السودان حديثاً لا يختلف كثيراً عن مادة هاتين المخطوطتين . ولا شك أن هذه المادة تحتاج إلى هوية ودراسة تحليلية (٩) .

وثائق تمليك الأرض :

وتمثل وثائق تمليك الأرض مصدراً من الوثائق هامة ، بل تمثل مرتكزاً أساسياً لدراسة تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي . فهي فوق أنها توضح العلاقات القائمة حول تمليك الأرض بين الدولة والمواطنين . خاصة رجال الدين . فإنها تساعد في شرح كثير مما يرد في المصادر الخطية الأخرى . ويمكن من طريقها المراجعة والصسط لما تحويه تلك المصادر من أنباء . ومعظم هذه الوثائق قد صدرت عن سلاطين الفونج والمبدلاب وعن دولتهم ونظامهم الحاكم . وكان أول من نبه إلى قيمتها التاريخية الدكتور أ-ج أركل في دراسة له عن أصل الفونج نشرت سنة ١٩٣٢ (١٠) ثم تبعه الأستاذ الصادق النور الذي نشر خمسة عقود تمليك في مجلة كوش في عام ١٩٥٦ . وفي سنة ١٩٦٧ ابتدر الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم دراسة رائدة في محص مجموعة مكونة من ست وثلاثين وثيقة . وكل هذه الوثائق محررة باللغة العربية ويرجع تاريخها إلى الفترة الواقعة بين سنة ١٧٢٩ و ١٨٢٠ . وقد بين الدكتور أبو سليم طبيعة هذه الوثائق وأهميتها . كما تعرض لتعريف الوظائف والألقاب الواردة فيها . وتكشف الوثائق عن الأساليب الديوانية التي كانت سائدة في الحكم . وتبين طريقة فص المنازعات وطريقة اقتطاع الأرض للأمر الدينية وللأفراد . ومع أن كثيراً من الوثائق مازالت في حلي الكتمان . إلا أن دار الوثائق المركزية بالخرطوم قد كشفت النقاب عن كثير من هذه العقود في المديرية الشمالية ومديرية النيل . وكردفان ودارفور . ومازالت توالي جهودها (١١) .

هذه باختصار المصادر العطية الوطنية واعتقد أنه يمكننا الكشف عن بعض المخطوطات ذات القيمة التاريخية إذا وصلنا السحت عند الأسر الدينية . كما أن هناك مجموعة من المؤلفات الدينية التي لم أتعرض إليها ولكنها دون شك تلقي بعض الضوء على الحالة الدينية للسلاذ آنذاك . ولا شك أنه في غياب كمية جوهرية من المصادر الوطنية المكتوبة عن السودان الشرقي فلا بد من الاعتماد على الروايات الشفهية وهذه نقطة أمل أن أعود إليها في آخر هذه الدراسة .

أدب الرحلات :

تشكل تقارير الزوار والرحالين الذين زاروا السودان الشرقي إبان هذه الفترة مصدرا من المصادر الهامة التي يمكن أن تكمل بعض الجوانب . التي خلقتها قلة المصادر الوطنية . ونلاحظ أن معظم هؤلاء الزوار من أصل أوربي وقد جاءوا للسودان . كمبره من الأقطار الأفريقية في إطار عملية الاستكشاف التي بدأتها أوروبا ولمعرفة خصائصه الجغرافية . وبغية التمهيد لفتح الطريق للحبشة المسيحية .

وكان المقامر اليهودي داود روبيسي أول من زار سلطنة الفونج . وكان في طريقه من اليمن إلى أوروبا . ومكث في سائر قرابة السنة بين عامي ١٥٢٢ و ١٥٢٣ . ومع أن بعض الباحثين يشككون في صديق ما كتبه روبيسي . إلا أن ما كتبه ذو أهمية فريدة . لما حوى من معلومات تفصيلية عن الفونج عند نشأة دولتهم . وقد نشرت رحلة داود روبيسي مترجمة إلى الإنجليزية في كتابين (١٤) .

وربما كان الرحالة التركي أوليا شلي ثاني من زار السودان في عام ١٦٧٢ وقد طاف أوليا شلي عددا من الأقطار في شمال أوروبا وآسيا وأفريقية . وخلف مادة كبيرة حسنها عشرة مجلدات وقد كتب في الجزء العاشر (١٥) أخبار رحلاته في مصر والسودان والحشة . وبما أن كتاباته لا تغلو من شيء من المبالغة والافراق فإن بعض الباحثين يميلون إلى أن ما كتبه عن السودان ربما استقاء من التجار الذين كانوا يترددون على تلك البلاد . ولم تحقق أو تنشر مادة الجزء العاشر نشرًا علميًا . كما أنها لم تترجم بعد للغة العربية . وقد ترجم الجزء العاشر بالسودان إلى اللغة الإيطالية (١٦) . وقد أحسنني الروفيسر رتشارد هل قبل بضعة أعوام أن ما نشر من هذه الرحلات في سنة ١٩٣٨ معروف لاتينية لا يطابق محتويات المخطوط التي كان قد اطلع عليها وكتبت بالتركية العثمانية (١٧) . وإزاء هذه الاعتبارات فلا بد من أخذ محتويات رحلة أوليا شلي بشيء من العذر .

وشهد مطلع القرن الثامن عشر قدوم جماعة من المشرين الذين يستحو
الى طائفتي اليسوعيين والفرنسيسكان الذين اتحدوا من مدينة سار نغلة
انطلاق لشاغلهم التبشيري في بلاد الحبشة المسيحية التي كانوا يؤمنون أن
يصير أهلها من أتباع الكنيسة الكاثوليكية في روما . وقد غلب هؤلاء
المشرون مذكرات وتقارير قيمة ، كما بحثوا بعض الرسائل الى ذويهم وقد
وجدت هذه الخطابات طريقها الى المكتبات الإيطالية . وحوت هذه التقارير
مادة متنوعة عن البلاد وأحوالها السياسية والاجتماعية . وفي كتاب تاريخ
مملكة المونج السارية أستعرض كرفورد عددا من مؤلفات هؤلاء
القساوسة (١٨) . وقد اطلعت مؤرخا على مخطوطتين لدراسيتين لهذا الموضوع
في شيء من التعميل للاب الدكتور جيوفاني فانتيني (١٩) .

ويحتل كتاب شارلر بوسيه مركزا هاما في هذه القائمة . ففي عام
١٦٩٨ وصل مدينة مشو التي تقع على الحدود الشمالية لسلطة الفونج وسها
تابع النيل حتى بلغ مدينة سار التي أقام فيها رجعا من الزمن وقد ترك
وصفا دقيقا لكل ما شهده (٢٠) . وقد اتسمت أوصافه بالدقة .

وكان ثيودور كرمب ثاني القساوسة الذين حلفوا وصفا لرحلتهم .
وقد أقام كرمب رمنا طويلا في بلاط ملوك العدا وبسلطين الفونج ورغم
كبر حجم ما خلفه من وصف الا أنه يفتقد العمق وقوة الملاحظة . ومن
المصادر الهامة في هذا المجال تاريخ الارشالية الفرنسيةكانية في الصومال
والفونج والحبشة ١٦٨٦ - ١٧٢٠ للاب يعقوب دي البانو الذي نشره الأب
جيراريل جاسبراديسي (٢١) . وكذلك سلطة أنيوبيا الفرنسيةكانية الجزء
الأول والثاني (٢٢) .

ومن أهم الرحالة الأوربيين الذين زاروا مملكة الفونج المكتشف
الاسكتلندي جيمس بروس الذي قضى معظم عام ١٧٦٢ في سار عند عودته
من الحبشة . وقد تعرف فيها بروس على طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية
واستقى كثيرا من الأحبار عن تاريخ تلك الدولة وخصمها في كتاب
رحلاته (٢٤) . الا أن ما ذكره بروس في ذلك الكتاب رغم حرارته وطرافته
فانه يحتوي على الكثير من عصر المسالمة وربما روح المفارقة والبطولة التي
يصفيها بروس عن كل مجراته في تلك الرحلة التي انتهت باكتشاف منابع
النيل الأزرق الذي ظل يفيض بالماء الوفير منذ بدء الحليقة وقد حظ بروس
مذكرة يومية سجل فيها معظم ما شاهده وسمعه ، فلما عاد الى موطنه كتب
تفاصيل رحلاته من هذه المذكرات . وذكر الاسكتندر مري مؤلف سيرة حياة
بروس في خطاب لأحد معارفه : أن كتاب بروس بالرغم من أنه قيم وعجيب

وقد كتب بأعماله . • ويذكر مري أنه بعد اصطلاحه على مذكرات بروس وجد فيها بعض الروايات التي لا تمت للحقيقة بصلة (٢٥) وقال عنه Benjamin Latrobe وهو من مرقوه من قرب . • لم يكن يوحى بالدقة بأهيك بالموضوع وكان عفويا فيما يحتصر بالتفصيل ولا نثت أن مذكرات بروس رغم تناقضها أحيانا فإنها تمثل مصدرا هاما لأصل الفونج (٢٦) •

وعلى نقض بروس نجد الرحالة المساوي جوس لويس بروكهارت الذي زار السودان حتى بلغ مدينة شسدي وميام سواكن خلال عامي ١٣ - ١٨١٤ متديا من الجمعية الإفريقية بسدر للكشف من دحل أفريقيا • وكان لويس بروكهارت هذا يحيد العربي . يقط العقل . قوي الملاحظة دقيق العبارة . أميا وصورا • وقد تركت كل هذه الصفات آثارها على رحلاته في بلاد النوبة (٢٧) • إذ أنه وصف طبيعة البلاد وأعطى صورة دقيقة للحياة الاجتماعية والاقتصادية خاصة تجارة الرقيق في العقد الثاني من القرن التاسع عشر •

وليس هناك نهاية لقائمة مؤلفات الرحالين الأوروبيين الذين زاروا السودان وكتبوا عنه خاصة بعد الفتح التركي المصري وتعرضوا للحديث من تاريخ تلك البلاد . ولكن أهميتها تتناول كلها اعتمادا عن عهد الفونج • وبعد أسماء هذه الكتب في كتاب كروغورد (٢٨) وفي كتاب الممالك السودانية (٢٩) • وفي طبقات ود ضيف الله المحقق حديثا (٣٠) • وعلى رأس هذه المجموعة كتب كايو (٣١) ولبانت دي بلموند (٣٢) ودي كادافين ودي بيفوري الذي أمل أن أعلق عليه عند حديثي من المسلمات (٣٣) •

ومن المصادر المفيدة مجموعة من الكتابات تحدثت عن الطرق التي تربط اثيوبيا بالبحر الأحمر (٣٤) • وتشمل هذه بعض المؤلفات البرتغالية التي كتبت من الحبشة في تاريخ معاصر لطلع هذه الدراسة • وللمزيد من المعلومات عن العلاقات السودانية الاثيوبية والمصادر الاثيوبية في هذا الموضوع انظر مقال مرد ولد أرقى وسيرفور هيل سلاسي (٣٥) • ويشتمل كتاب فاسليب من مصر في القرن السابع على بعض الحقائق من العلاقات بين القليمي وادي النيل (٣٦) •

وانتت دراسة البروفيسر جكير أورهنولو من • ولاية الحبشة • أن المكتبات التركية تحتوي على مجموعة طيبة من الوثائق التركية التي تتعرض لمناطق مصوع وسواكن • وأمل أن تتجه أنظار الباحثين لهذا المصدر الهام

وخاصة عن سلطة الفور في القرن التاسع عشر . وقد نشر البروفيسور
أورهونلو عددا من الوثائق التركية في كتابه « ولاية العشة » (٣٧) .

الباب الثالث

مملكتي دارفور والمسبغات

لا تختلف نوعية المصادر التي تزخر لمملكتي العور والمسبغات هما
استمرضناه من مصادر المنطقة السيلية إلا أنها أقل وفرة كما أنها باستثناء
القليل منها لا تقدم معلومات مفصلة .

المصادر المحلية :

ليس في كل ما كتب عن هذا الاقليم ما يصاحي معطوطة كاتب الشونة
أو طبقات ود خيف الله . ولكن الروايات الشفوية المتداولة عند المواطنين
والتي دونت في القرب التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تمثل مصدرا
هاما لا يمكن اغفاله . فقد جمع ماكمايكل شذرا من هذه الروايات في
كتابه « تاريخ العرب في السودان » و « قبائل شمال وأوسط كردفان »
الذين أسلفا الإشارة إليهما (٣٨) . كما أن مجلة السودان بها رسائل
ومدونات تحوي العديد من المقالات التي تعتمد أصلا على قدر كبير من
الروايات الشفوية - مثل مقالات ج ١٠ - أركل عن تاريخ الفور . وقد أثرى
السيد أركل المكتبة السودانية بحفظه لأصول كثيرة من هذه الأعمار بالصورة
التي جمعها فيها إبان إقامته الطويلة في دارفور بين عامي ٢١ - ١٩٢٦
ثم بين عامي ٧٢ - ١٩٣٧ . وتوجد هذه المذكرات التي تشكل معلومات ثرة
عن مملكة الفونج في مكتبة معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة
لندن . ومن هذه الوثائق قاموس دالي الذي يعتبر أساس التشريع والعرف
القانوني عند سلاطين الفور كما تشمل وريقات عن أنساب القبائل
وأخبارات مختصرة عن تاريخ بعض القبائل . وقوائم بأسماء السلاطين .
وتحتوي أيضا على ما جمعه أركل من أقوال الرواة أثناء تجواله في تلك
المديرية (٣٩) . وتشكل أوراق أركل مصدرا رئيسيا لتاريخ سلطنة
الفور .

وفي العهد التركي المصري (١٨٧٤ - ١٨٨٥) جمع سلاطين Slatin
باشا مادة مشابهة ونشرها في كتابه « البار والسيف » (٤٠) . كما ألف

نعم شقي . وكان يعمل في المخابرات المصرية . حيزا كبيرا من كتابه الهام « تاريخ السودان » نفس الفرض (٤١) . وقد جمع كثيرا من معلوماته هذه من الشيخ محمد الطيب امام مسجد السلطان علي دينار . ونجد في مؤلفات المؤرخ السوداني محمد عبد الرحيم صدي للروايات الشفوية في كتاباته عن تاريخ الفور والمسببات (٤٢) .

عقود تملك الأرض :

تمثل هذه مصدرا من الوثائق هاما لتاريخ سلطة الفور نسبة للصلة المدونات المحلية وحلها لما كان يظن فقد عثر على قدر كبير من هذه الوثائق السلطانية . وربما كان أول من نه إليها المؤلفان جوزيف وماري جوس تيباما عندما صورا خمس عشرة وثيقة . في دور الواقعة شمال دارفور . عام ١٩٦٥ . وفي منتصف عام ١٩٧٠ اكتشف الدكتور ركس شين أوفاهي مرهدا من عقود التملك هذه في مدينة الفاشر وضواحيها . وفي رحلات أخرى معائلة تم الحصول على مرهد من الوثائق تشمل وثائق التملك وغيرها من الوثائق مثل سندات بيع الرقيق ورحص تجارية وطلب اعفاء من الضرائب . وترجع أقدم هذه الوثائق الى عهد السلطان أبي القاسم (١٧٦٤ - ١٧٦٨) إلا أن معظمها يعود الى عهد السلطان علي دينار الذي قتل في سنة ١٩١٦ . وقد نشر الدكتور أوفاهي بمعاونة الدكتور عبد المنار محمد أحمد جزءا من هذه الوثائق في كتابين بمسوار . وثائق من الفور ، (٤٣) . ومازال هناك مجال لجمع وثائق أكثر اذا ما ضعف الجهد . وهذا التفتيش يتطلب السرعة إذ أن الزمن ليس في صالح الباحثين بسبب الأوقات مثل الأرض وربما المرائق التي تتلف الكثير من هذه الوثائق . كما أن من يستطيعون شرح ما يخص من محتويات هذه الوثائق يتناقص عددهم عاما بعد عام (٤٤) .

وأخيرا قام الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم بدراسة كل ما اكتشف من هذه الوثائق في بحث معائل لكتابه « الفونج والأرض » درس فيه تسعا وعشرين وثيقة بعد أن نقل نصوصها نقلا حرفيا . ومن الملاحظات التي درسها في كتابه « الفور والأرض » . من خلال هذه الوثائق ، وضع المزارع وسياسة السلاطين نحو الأرض والمطايا والملكية للمحاورة (وجمعها حواكير) أي استعمار الأرض دون أن يكون للمزارع حق الملكية المطلقة عليها (٤٥) .

آداب الرحلات :

زار هذا الاقليم رحالون ثلاثة هم التونسي وبراون وناختيغال . كما

تشمل كتابات الرحالة الذين زاروا الأقاليم المجاورة أو كتبوا عنها في ذلك الوقت بعض الأخبار عن إقليم النور .

أما محمد بن عمر التونسي (١٧٨٩ - ١٨٥٧) فيسكن في أسرة تعود بعض أفرادها على سار والفائر ووادي بقصد التجارة ، وتدرس العلوم الدينية . وفي عام ١٨٠٣ قدم التونسي إلى الفائر باحثاً عن والده ، ومكث هناك قرابة ثمانية سنوات . كما زار مملكة وادي وفي أثناءقامته في دارفور تحول في أقاليمها المحتمة والم بأحوالها السياسية والاجتماعية والتاريخية . وقد مكث هناك مدة وقوة ملاحظته من احتراق كثير من المعلومات من تلك البلاد . وفي عام ١٨٢٢ سجل التونسي هذه المادة بتشجيع من المستشرق الفرنسي برون . ونشرت في طبعة على الحجر باسم : تشييد الأذهار بسمر بلاد العرب والسودان . (٤٦) . ونشرت في طبعة معققة عام ١٩٦٥ (٤٧) . وفي هذا الكتاب خلف لنا التونسي أولى وصف من هذا الاقليم . وسع أن هذا المؤلف يعتبر امتداداً طبيعياً للملاحظات الرحالة العرب الذين زاروا السودان مثل ابن سليم الأسواني وابن بطوطة في محتواها - إلا أنه أول مؤلف عربي يتحدث عن بلاد السودان الشرقي منذ القرن الخامس عشر . وربما كان تشييد الأذهار (ووصفه عن وادي) آخر مساهمة عربية جادة كتبت عن تجربة رحلة مباشرة لأواسط القارة الافريقية .

وترسم خطى التونسي ، رحلة تونسي آخر . يسمى زين العابدين . ففي نحو عام ١٨١٨ ذهب إلى السودان حيث مكث فيسبب عشرة أعوام زار خلالها سار وكردفان ودارفور ووادي . واشتغل بالتدريس . وقد صاغ الأصل العربي لذكراته من تلك الرحلة إلا أن ترجمة تركية لها قد نشرت في عام ١٨٤٦ . وأخرى ألمانية طبعت بعد عام واحد (٤٨) . وقيل أن الكتاب يضيف بعض المعلومات على ما أورده التونسي من دارفور إلا أنه أقل قيمة من كتاب تشييد الأذهان .

وفي عام ١٧٩٣ استطاع الرحالة الإنجليزي - وق - براون أن يصل إلى دارفور حيث مكث فيها حتى عام ١٧٩٦ . وتمكن خلالها رغم - العجز - المفروض عليه من جمع معلومات غنية من تلك البلاد خاصة في الشؤون التجارية . وقد ضمنت في كتابه - أسفار في أفريقيا - (٤٩) . وزار الرحالة

الألماني جوستاف مانتيفال الفائر سنة ١٧٧٤ . بعد رحلة طويلة زار خلالها أقاليم تيسيتي ، وكانم ووادي - ومكث في الفائر نحو ستة أشهر . جمع خلالها كثيراً من الأحاسيس الثرة من وضع تلك البلاد . وتاريخها السياسي والاجتماعي وقدم وصفاً تفصيلياً لبعض المواد وكان مصدره في هذا كله .

الى جانب مشاهداته بعض الرواة - ومشر الجرم المتعلق بواداي ودارفور
بالألمانية في الجزء الثالث وفي ترجمة بالانجليزية في الجزء الرابع (٥٠) -

ويجد السامع، كثيرا من الاشارات القيمة في معظم ما كتب من الممالك
الاسلامية الشرقية المعاصرة لفمفكتني الفور والمسعات - كما يجد الباحث
ايضا بعض الاشارات المفيدة في دراسات هري يارث مثل رحلات واكتشافات
في افريقيا الشمالية والوسطى (٥١) -

ولعل من أهم الكتب المعاصرة كتاب مصر والوبة للمؤلفين دي كادافير
ودبروفيري (٥٢) خاصة الجزء المتعلق بالقليم كردفان (سلطنة المسبات) -
ويؤرخ هذا الجزء لتساريج كردفان من القرن الخامس عشر وحتى أوائل
القرن التاسع عشر - وقد زار هدار الكاتار مصر ثم تابعها النيل حتى مدينة
دنقلا ثم جبل التركل - وقد اعتمدا في كتابة هذا الجزء على مستشرق
فرنسي ، كان يعيش في مصر وسها تردد على السودان مرات كما زار مدينة
الأبيض - ويبدو أنه قد حصل على معلومات في إحدى زياراته تلك من أحد
الفراد أسرة المسبات (٥٣) - وهذه الصفحات خير ما وصلنا من تاريخ
سلطنة المسبات -

وثائق سجلات المحاكم في القاهرة :

وقد اكتشف الدكتور ت. ولتر عند دراسته للتجارة بين مصر وبلاد
السودان ١٧٠٠ - ١٨٢٠ - وثائق عامة في بعض المحاكم الشرعية في
القاهرة ، وتوجد معظم هذه الوثائق في مصلحة الشهر العقاري - وتحتوي
على مجموعة من الدفاتر يرجع تاريخها الى سنة ١٥٢٧ - وتشمل هذه السجلات
أسماء كثيرة من التجار الذين كانوا يتاجرون مع أجرام متفرقة من القارة
الافريقية - وذكر الدكتور ولتر أنه وجد فيها مادة غريبة كانت ذات فائدة
عظيمة في دراسته هذه - وبين أن أصول هذه الوثائق توجد في محكمة التهمة
العربية ومحكمة القسمة العسكرية ومحكمة الباب العالي ، والمحكمة الصالحية
النجمية - كما تشمل هذه الوثائق على عقود الأوقاف ووثائق البيع وإيصالات
التسليم وعقود التوكيل وغيرها من الوثائق ذات الصلة التجارية ولا شك أن
مثل هذه الوثائق قد تفتح آفاقا جديدة في البحث العلمي (٥٥) -

الباب الرابع

التراث الشفوي وأهميته جمعه

ذكرت في أكثر من مناسبة في هذه الدراسة أن بعض المؤلفات كمنعوتة . كاتب الثونة ، كانت في أصلها مجموعة من الأخبار التاريخية المتداولة عند الناس ثم جمعت وودنت في كتب . وهذا القول يطبق على كثير من تلك المؤلفات بل أن معظم ما جمعه الرحالة يسبق من هذا الرائد . وفي أول هذا القرن كان كثير من الإداريين البريطانيين يسألون أوقات فراغهم بتوجيه أسئلة للمواطنين عن بعض الظواهر الاجتماعية أو الروايات التاريخية المتداولة . وأصبحت كل هذه الأخبار تمثل ذخيرة تاريخية هامة يهتدي بها الكتاب عند دراستهم لتاريخ هذه البلاد . وفي وقتنا هذا بدأت شحة أبحاث السودان (وس بعدها معهد الدراسات الإفريقية والأسيوية) بجامعة الخرطوم بجمع الروايات الشفوية المتداولة بين سكان منطقة معينة وغير مثال لذلك . تاريخ المدلال من خلال رواياتهم الساعية ، والتراث الشعبي لقبيلة المسيمات ، ومارال هناك مجال واسع لكل الباحثين في هذا المضمار . فقد جمع كاتب هذه السطور بعض الأخبار الهامة عن تاريخ سلطنة الفونج . في أعالي النيل الأزرق . بعد توجيه أسئلة متعددة ، وفق منهج علمي ارتشاه لنفسه . وكانت النتيجة مشجعة جدا . هذا لا يعني أن نترك الباب مفتوحا لكل شخص دون تدريب علمي على جمع مثل هذه المادة . فإذا لم نفعل ذلك فسيتمذر علينا ملء كثير من الثغرات التي أهلها المعاصرون ممن كتبوا عن تاريخ هذه البلاد . وأرجو أن أتبه أن منهج جمع هذه الروايات الشفوية ، في مجتمع ظل بعض أهله يجيدون القراءة والكتابة منذ أمد بعيد يختلف كثيرا عن الصوابط التي وصمها البروفيسر جار فانسينا في منهجه الرائد ، ووصفها في كتابه . الثقايد الشفوية (٥٦) .

وهما يكن من أمر المنهج الذي نسمه في جمع الروايات الشفوية لمبدو لي أنه مع قلة المصادر المكتوبة لابد من الإسراع بجمع هذه الروايات قبل موث حتميتها . في وقت أخذ الاعتماد على الكلمة المكتوبة يزداد يوما بعد يوم . وأرى أن موضوع الروايات الشفوية كمصدر من مصادر التاريخ ، يستحق

العناية والدراسة من الباحثين . ولابد من ربط زيادة حصيلة من الروايات الشفوية بالبحوث المنتظم داخل السودان وخارجه من الوثائق والمؤلفات التي مارالت في طي الكتمان . وقد برهنت التجربة أن مثل هذه المحاولات قل أن تفشل .

وختاماً اسمحوا لي أن أنهي هذه الدراسة بقائمة ببعض الدراسات الحديثة التي تحتوي في نيت مصادرها على قدر من صاوين كل ما كتب عن بلاد السودان الشرقي . خاصة في الدوريات - التي تشكل في يومنا هذا مصدراً لا غنى عنه لكل باحث (٥٧) .

المصادر والهوامش

1. O.G S Crawford The Funj Kingdom of Sennar, Gloucester.

2. Yusuf Fadi Hasan, The Arabs & the Sudan, Khartoum 1974 3rd edition.

3 R L Hill A bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan from the earliest times to 1937, London 1939.

٤ - محمد النور بن ضيف الله . كتاب الطبقات في غصوص الأولياء والصالحين والملوك والشعراء . تحقيق يوسف فضل حسن . الخرطوم . ١٩٧٤ .

٥ - مصطفى محمد سعد . المكتبة السودانية العربية مجموعة الوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى . القاهرة . ١٩٧٢ .

6 Abd El-Rahman El Nasri, A Bibliography of the Sudan 1938 - 1958. London, 1963

7. R.S. O'Fahey : The Growth and Development of the Keira Sultanate of Darfur. Ph D London, 1972.

8 J.L. Spaulding, Kings of Sun and Shadow . A History of the Abdallab Provinces 1500 - 1800 A D Ph. D

٩ - قاسم عثمان نور . مصادر الدراسات السودانية . الخرطوم . ١٩٧٢ .

١٠ - يوسف أحمد دامر . الاصول العربية للدراسات السودانية . بيروت . ١٩٦٨ .

- ١ - أحمد بن علي القريري ، كتاب الخواص والاعتبار بذكر الخطط والأثار ،
تعقيق فيث - القاهرة ، ١٩٢٢ ، ج ٣ ، ٢٥٢ - ٢٧٨ .
- ٢ - واورد ابن عبد السلام فصلا في كتابه الفيض الجديد في أخبار النيل السعيد .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩ تاريخ - وابن أبياس في نشق الأزهار في عجائب الأقطار .
مخطوطة - المتحف البريطاني - لندن .
- ٣ - مصطفى محمد مسعد ، المكتبة السودانية العربية ، مجموعة النصوص والوثائق
العربية الخاصة بتاريخ السودان في المصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- ٤ - نشر هذا الكتاب في وارسو ببولندا ، سنة ١٩٧٨ ، ولكن لم أر نسخة
منه بغيره .
5. Yusuf Fadl Hasan, The Arabs and the Sudan, Edinburgh
1967, PP. 182 - 213, 258 - 264.
- ٦ - يرجى أن يعثر الباحث على بعض المصادر في مكتبات مكة المكرمة والمدينة المنورة
وجدة ، واليمن . فهذه المكتبات لم تخصص محتوياتها بعد ، فعسا دليقا - ويأمل المؤلف
أن يرجع الى مكتبات العجاز في هذا الشأن .
- ٧ - الطبقات لابن خليف الله ، تحقيق وتعليق وتقديم يوسف فضل حسن ، الطبعة
الاولى ١٩٧٠ ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ .
8. A. E. D. Penn, "Traditional stories of the Abdullab
Tribe " "Sudan Notes and Records" XVII, (1934) 58 - 82.
- ٩ - أحمد عبد الرحيم نصر ، تاريخ المبدل من خلال رواياتهم السماعية - شعبا
إبعا السودان ، الخرطوم ، ١٩٦٩ .
10. A. J. Arkell, "Funj Origins" Sudan Notes and Records"
X V (1932) P. 9, and 248 - 50.
- ١٢ - محمد إبراهيم أبو سليم : الفولج والأرض : وثائق تعليقات : شعبا إبعا
السودان - الخرطوم ١٩٦٧ . انظر أيضا يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان
ص ١٢٠ - ١٢٢ والمصادر المذكورة هناك .
14. E. N. "David Reubeni", Jewish, Trevellers, London,
1930 251 - 328; S. Hellilson, David, Reubeni, an early visitor to
Sennar, Sudan Notes and Records, XVI, 1933, 55 - 66.
15. Evliya Celebi, Seyahamesi Misr Sudan, Habes
1672 - 1680 Istanbul, 1938.
16. Maria Tereza Pette Suma, "Il viaggio in Sudan di,
Evliya Celebi 1671 - 1672" Annali Del Istitute Universtarior
orientale, (Naples) N. S. XIV, II, 1964.

35. F. Alvarez, The Prester John of the Indies ed C. F. Beckingham and G. W. B. Huulingford, Hakluyt Society No. CXV, Cambridge, 1961. Merid Wolde Aregay, and Sergew Hable Selassie, "Sudanese Ethiopian Relations before the Nineteenth Century" in Sudan in Africa, ed Yusuf Fadl Hasan, Khartoum, 1971.

36. J. M. Wansleben, The Present state of Egypt, or a new relation of a Late Voyage into that Kingdom, London 1678, J. M. Vansleb, Nouvelle relation en forme de Journal d'un voyage fait en Egypte Paris, 1677.

37. Genciz Orhonlu, Habes Eyaleti, Istanbul, 1974.

٣٨ - انظر صفحة ٧ اعلاه .

٣٩ - وقد وصف اوقامي مجموعة اوراق اركل في دراسة تفصيلية بعنوان :
R. S. O'Fahey, "The Sudan of the Re V. A. J. Arkell, Sudan notes and Records, LV (1974) 172 - 74.

40. R. Von Slatin, Fire and Sword in the Sudan, London, 1896.

٤١ - تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته . القاهرة . ١٩٠٣ .
ج ١١١/٩ - ١٤٨ .
٤٢ - ابطال السودان . مخطوطة تعدها للنشر دار الوثائق المركزية بالتعاون مع
معهد الدراسات الافريقية والاسيوية و « مملكة المسبحات » مجلة ام درمان ، العدد
الثاني ، (٣٠ سبتمبر ١٩٣٦) - ٧٩ - ٨١ .

43. Rex S. O'Fahey and Abdul-Ghaffar Mohammed Ahmed, Documents from Dar fur, Fascilo No. 1-2.

44. R. S. O'Fahey A plea for the collection and study of non literacy public & Private Records., Bulletin of Information Fontes Historic Africane, Accra, 1976. 6 - 12 and 26 - 30.

٤٥ - معبد ابراهيم ابو سليم ، الفور والارض ولاتق تملك . الخرطوم ١٩٧٥ .
٤٦ - باريس ١٨٥٠ ، وترجمها بيرون الى الفرنسية بعنوان :
Voyage au Darfur par le Cheykh Mohamed Ebn Omer El Tonnsy, Paris.

١٧ - لعل البروفسور هل يشع الى المخطوطة المخطوطة بمكتبة السليمانية في استنبول .
وقد رابنها وهي بحروف عربية واضحة .

18. O. G. B. - Grawford, The Funj Kingdom of Sennar, G; picester, 1951, PP 196 - 236.

19. The Franciscan Travellers in Nubia and Sennar between 1680 - 1720.

20. C. J. Poncet, *Avoyage to Ethiopia made in the years 1698, 1699, 1700 describing particularly that famous Empire as also the Kingdom of Dongola, Sennar*, London, 1709.

21. The Krump, Hoher und Fruchtbare Palm Baum, Angsburg, 1710.

22. Giacomo D'ALBANO, *Historia Della Missione Francescana in alto Egitto Fungi-Etiopia, 1686 - 1720*, ed by G Giamberardini, Cairo, 1961, *Viraggiatori Franciscani attraverso la Nubia dal 1698 al 1710*.

23. *Etiopia Francesca, ne Documenti der secoli XVII E XVIII*, ed T. S. di Hetole, 1638, 16 - 43, Quaracchi, Vol 1. *Etiopia Francesca*, ed by G.M. Montano, Quaracchi, 1948 Vol II.

24. James Bruce, *Travels to Discover the Sources of the Nile, 1804 - 5*, 7 volumes, Edinburgh, 2nd edition.

25. Alexander Murray, *Account of the life and writings of James Bruce Kinnaird*, Edinburgh, 1808.

26. J. Bruce, *Travels to discover the sources of the Nile* .., Selected and edited by G.F. Beckingham, Edinburgh, 1964, 16.

27. J. L. Burckhardt, *Travels in Nubia*, London, 1822.

28. O.G.S. Crawford, *The Funj Kingdom, of Sennar Gloucester*, 1951.

29. R.S. O'Fahey and J.L. Spaulding, *Kingdoms of the Sudan*, London, 1974.

٢٠ - محمد النور بن سيف الله . كتاب الطبقات ، تعليق يوسف فضل حسن ، ١٩٧٤ .

31. F. Cailliaud, *Voyage a Meroe au Fleuve blanc* fait dans les annees 1819, 1820, 1821 et 1822 4 Vols, Paris 1826.

32. L. de Bellefonde, .. *Journal D'un Voyage a Meroe dans les annes 1821 et 1822* - ed M. Shinne, Khartoum 1954.

33. E. de Cadalvene, J. de Breuvery, *Egypte at la Nubie*, Paris, 1839 Vol 1.

34. O. G. S. Crawford, ed., *Ethiopian Itineraries circa, 1400 - 1524* Hakluyt Society, 2nd series, No. cix Cambridge, 1953.

٤٧ - حلفه الأستاذان خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

48. Zein Elabdin, *Das Bush des Sudan*, translated by G. Rosen, Leipzig, 1847.

49. G. W. Browne, *Travels in Africa, Egypt, and Syria for the years : 1792 - 1796*, London, 1799.

G. Nachtigal, Sahara und Sudan, Leipzig, 1967, III, Sahara and Sudan; Wadi and Darfur, 1971, translated by A.G.B. Fisher and J.J. Fisher, with R.S. O'Fahey.

51. H. Barth, Travels and Discoveries in Northern and Central Africa 5 Vols, London, 1857.

52. E. de Cadalvene and J. de Breuvery L'Egypte te Nubie, Vol 11, Paris, 1838.

53. R. S. O'Fahey, "Kordofan in the eighteenth Century" Sudan Notes and Records, LIV (1973), 32 - 42.

XII - XVI : انظر المصدر السابق صفحات :

56. Jan Vansina, Oral Tradition, A study in Historical Methodology, London, 1965.

٥٧ - قبل فترة هذا كاتب هذه الدراسة في اعدادات جغرافية ملخصة عن تاريخ الممالك الإسلامية في السودان وادي النيل -